

حركة الشباب الجزائريين بين الوطنية والاندماج

أ.د. يوسف عابد - جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

الشبان الجزائريون هم جماعة جزائرية متميزة بنشأتها في المحيط الاجتماعي الذي هيأته لها فرنسا، وكما يقول علماء الاجتماع: "إن المحيط الثقافي يحدد قوالب التفكير". فهذه الجماعة تكونت بأدوات وفرنسا الاستعمارية، وأهم تلك الأدوات تمثلت في المدرسة.

لقد حددت أهداف المدرسة الفرنسية في الجزائر وتجسدت في غرس القيم الحضارية الأوروبية في نفوس أبناء الجزائر، ثم عملت على تكريس المعتقدات المهيمنة للسلوك في نفوس الأجيال، بحيث يوفر ظروف استمرار وجودها ويتم تحقيق ذلك عن طريق التعليم. وعليه فالنظام السياسي الفرنسي في مستعمرته الجزائر كان يستعمل التعليم كوسيلة لنقل الاتجاهات السياسية بعيدا عن التصادم مع واقع الجزائريين الأصلي، كل هذا للحفاظ على الاستقرار السياسي.

لقد ظهر تأثير المناهج الدراسية الفرنسية في الجزائر من خلال التوجه السياسي الذي حضر في مخابر التوجهات النفسية والسلوكية الفرنسية، ثم يقدم في شكل برامج دراسية رسمية، كإعطاء مفاهيم حول المواطنة، التاريخ، اللغة، الأدب، وقصد تحقيق هذه البرامج بدأت السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر في نهاية القرن 19م.

يظهر جليا اتهام المجتمع الجزائري بالفسوق والخروج عن المكتسب الحضاري الذي تسوق له فرنسا، وتقترح دراسة اللغة الفرنسية كأساس للتعليم في المدرسة الفرنسية باعتبارها اللغة الأم ولغة الحضارة.

ومن اجل دعم وتقوية هذا الاتجاه فرضت دراسة التاريخ والجغرافيا، وفي هذا المجال التعليمي أدرجت فرنسا مفاهيم حول علاقة فرنسا بالجزائر وركزت على عراقلة الفينيقيين بالجزائر وكذا الرومان الذين بنوا المدن، وشيدوا الطرقات، والربط بين أحفاد الرومان والفرنسيين الذين جاؤوا إلى الجزائر، وقصد التوضيح أكثر أشير إلى مافعله المعلم سانت كالبر (st. Calbre) في مدرسة بقسنطينة

حيث طالب بان تركز الدروس على عدم تبيان قارتي آسيا وإفريقيا، ولكن أوروبا وتحديدًا ذكر فرنسا كأكبر قوة، وان باريس هي أكبر مدينة، وهذا يدخل في إطار تعظيم حضارة فرنسا، وسعة إنسانيتها وإنقاص قيمة الجزائر بعدم ذكرها.⁻¹⁻

أما المسار السلوكي فقد عاجلته سياسة التعليم الفرنسية في الجزائر بالتركيز على الجانب الأخلاقي الذي ربطته المدرسة الفرنسية في الجزائر بمبادئ الجمهورية الثالثة فهي ضامنة النظام بكل أشكاله، ويقول جول فيري في هذا الشأن: " اعتبروا المعلم بمثابة أب العائلة فكلموا الطفل كما تكلموا أولادكم". وان النموذج المتبع هو ذلك المتعلق بالمدرسة العلمانية، فعلى المعلمين الفرنسيين ان يعملوا على تربية وتطوير الطفل الانديجيني بشكل يصبح فيه نزيها ومستقيما بالاعتماد على الجانب الأخلاقي والعلمانية.

وتماشيا مع ماسبق ذكره أشار ارنست لافيس (Ernest La Visse) " هل تعلمون ماهي الجمهورية؟ وماهي الكلمات الأولى للجمهورية الفرنسية؟ هناك من يجب: الجمهورية هي بلد أين لا يوجد الملك، ولا الإمبراطور، ولا سيد يعمل مايريد على الأطفال. هي: بلد كفرنسا أين الأمة تعين بنفسها الحكومة، هذا صحيح". ولكن إضافة شيء، ماهو؟ الجمهورية هي البلد أين كل السكان يجب أن يكونوا متعلمين ونزيهين، بهدف تعيين حكامهم الأكثر اضطلاعا وتقديرا واحتراما، وهكذا يمكن الوصول إلى: التعليم ضرورة ملحة للجزائريين لإدراك حقوقهم السياسية (الاقتراع، الترشح، الانتخاب، العضوية في المجالس) وهكذا اكتسب بعض الطلبة الجزائريين القيم السياسية في المدرسة الفرنسية.

زيادة على التعليم، فقد خصصت الوظائف الإدارية المحلية التي أسندت لمجموعة كبيرة من الجزائريين المتخرجين من تلك المدارس و الذين أظهروا استعدادا للتعاون مع سياسة فرنسا الإستعمارية، كما فتحت فرنسا أمام هؤلاء فرصا واسعة بأقل الجهد تمثلت في الإستفادة من العقار العمراني و الفلاحي و التجاري، كل ذلك يدخل في إطار ما يعرفه علماء الاجتماع بالرأس مال الثقافي الذي يعد وظيفة إجتماعية حيث تستخدمها القوى السياسية المسيطرة كأداة لفرض سيطرتها الإجتماعية السياسية.

تشكل جمعية الشبان الجزائريين

لقد تجمعت آراء و قدرات مجموعة من الشبان الجزائريين و إنطلاقا مما عاشوا فيه و تشبعوا بثقافة المستعمر، لذلك فإن جمعية الشبان الجزائريين تشترك في مرجعية واحدة و هي المكانة الاجتماعية السامية وسط المجتمع الجزائري الذي يتشكل من الفلاحين و الحرفيين، الفقراء في حين تطمح الجماعة إلى إمكانية مسايرة المجتمع الفرنسي.

لقد حاز المنتمون لحركة الشبان الجزائريين مستوى من الثقافة الفرنسية و قسطا من الثقافة العربية و على هذا الأساس تحركوا سياسيا و تمكنوا من التفاعل مع الإدارة الفرنسية⁻²⁻ من جهة و الأهالي من جهة ثانية و تبنوا سياسة قائمة على رفض الأنديجينا، و تمسكوا بالوجود الفرنسي، و اعتقدوا إمكانية الاندماج التدريجي للجزائريين في المجتمع الفرنسي.

إن النضال السياسي الإصلاحي السلمي هو المنهج المعتمد من قبل هؤلاء الشبان الذين كان يقودهم ابن التهامي ثم انضم إليهم الأمير خالد سنة 1913، و كان قد أتم تكوينه العسكري في المدرسة العسكرية سانت سير « Saint cyr » ، و لم يعمر اللقاء بينهم و بين الأمير خالد الذي إستدعي إلى الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى.

لم يبدأ الأمير خالد نشاطه السياسي الفعلي المستمر إلا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث إستقر في الجزائر عام 1919م.

و حقق الشبان الجزائريون أول أهدافهم عندما شاركوا في إنتخابات المجالس المنتخبة من طرف الفرنسيين أما على مستوى الجزائر فتوجد المندوبيات المالية التي كانت مهمتها التصويت على الميزانية. و أعدوا جملة من المطالب⁻³⁻ تمثلت في:

- إلغاء القوانين الإستثنائية.
- المساواة في الخدمة العسكرية و في الحقوق و الواجبات بين الأهالي الجزائريين و الأوروبيين.
- حرية التعليم و إجباريته على الجزائريين.
- حق الجزائريين في تقلد المناصب دون تمييز بين الأوروبيين و الجزائريين.

- حرية الصحافة و التعبير.

- تطبيق القوانين الإجتماعية على السكان الأهالي.10

نلاحظ نضجا سياسيا في مطالب هؤلاء الشبان، و قد ترك نضالهم السياسي السلمي خلال الفترة الممتدة من 1908 إلى 1920 صدى في الأوساط الفرانكو فنية، و تجاوب مع أطروحاتهم

الشباب فرحات عباس خاصة في مطلبهم المتعلق بالاندماج.11

و قد تدعم هذا التوجه السياسي أثناء إنضمام فرحات عباس إلى المنتخبين الجزائريين بمجرد دخوله مدينة سطيف أين إلتقى بالدكتور ابن جلول الذي فتح له آفاق النشاط السياسي السلمي، و إزداد إلحاح حركة الشبان الجزائريين في مطلب الحق في الإندماج مع المجتمع الفرنسي، و التمسك بالمواطنة الفرنسية للأهالي الجزائريين.

لقد إستمر هذا الوضع السياسي في الجزائر و أفراد حركة الشبان الجزائريين بالنشاط السياسي وفق رؤيتهم مع محاولة ضم أكبر عدد ممكن من الجزائريين إلى صفوفهم إلى أن طرأت تغيرات أملتها ظروف داخلية و أخرى خارجية برزت إلى الوجود سنة 1925- 1926

ظهور الفكر الإصلاحي الإستقلالي:

و بناء على ما سبق نخلص الى القول بان جماعة النخبة تمنح الفرد مجموعة من القواعد الفكرية التي تسمح له بإمكانية التعايش مع الآخر و بالتالي تتم تنشئتهم لكي ينسجموا مع متطلبات المرحلة ، الامر الذي يؤهله لكي يعدل من سلوكه لكي يصبح مقبولا من قبل المجتمع الفرنسي الذي يتسع للجميع (من الاندماجين الجزائريين) ، لكن في ظل هذه التحولات الاجتماعية و السياسية التي يتبناها الاستعمار الفرنسي ظهرت علامات حراك اجتماعي ، ثقافي و سياسي من نوع اخر اهم صفاته انه يعاكس توجهات حركة الشبان الجزائريين في كل شيء تمثل في المدرسة الجزائرية الوطنية التي تعتمد اللغة العربية دون تردد و تسعى لتطوير علم التاريخ ، و الجغرافية ، و روح الاسلام تمثلت في نشاط التعليم العربي الاسلامي ، حيث تحملت الزوايا القسط الاكبر من متاعبه و اعباءه فالزاوية الرحمانية امتد اثرها حتى الى الشرق الجزائري و الى تونس و في المغرب نجد المرابطين يجمعون بين

العبادة و الجهاد و الدفاع عن ارض الجزائر ، و جدير بالإشارة ان حركة المرابطين نشأت في شمال افريقيا من خلال حركة الاربطة التي امتدت من اقصى المغرب الى غرب الاسكندرية ⁻⁴⁻ .

ان انتشار الزوايا كان في الارياف و يمكن ان نأخذ دور الزاوية الدرقاوية كنموذج حي في مجال تنشئة و صقل شخصيته كما تعمل على تشبع الفرد الجزائري بالقيم العربية الاسلامية الاصلية و نشر الحرية و العدالة في المجتمع و هذا يمثل نقلة نوعية في مناهج التعليم على مستوى جميع الزوايا و يمكن ان نختتم بالإشارة الى ان الزعيم مصالي الحاج هو من خريجي التعليم في الزوايا و هذا له دلالة واضحة على التحولات الفكرية و السياسية التي واكبت ظهور و تطور حركة الشبان الجزائريين.

ظهور الحقيقة :

بعد النضج السياسي الناتج عن ارتفاع المستوى التعليمي الذي تبنته الزوايا في الجزائر ، و بعد الهجرة ⁻⁵⁻ الجزائرية الى فرنسا انتقل النضال الى فرنسا بآليات حديثة لنفس المطالب : الاستغلال ، و نظام الرقابة الخاص، و الغاء قانون الأهالي ، هذه المطالب تجد أرضية في طموح لم شمل أبناء الجزائر بمختلف تطلعاتهم .

و لم يتخلف عن محاولات لم الشمل و لن يتم ذلك الا اذا حسمت الصياغات الوسطية للحركة الاسلامية ، و حركة الشبان الجزائريين الذين كانوا الى حد 1926 ⁻⁶⁻ يقسمون الساحة الجوارية بشكل غير متساوي .

و أشير الى أن استقالة البورجوازية الجزائرية أي حركة الشبان الجزائريين و الطلبة من استلام قيادة حزب نجم شمال افريقيا و قد كان من المعروف أن غالبية الطلبة الجزائريين في فرنسا هي من أهل برجوازي و تدافع في معظمها عن مواقف معتدلة و أن تمثيل حركة الشبان الجزائريين في جمعية التيارات السياسية في فرنسا بقي ضعيفا و غياهم عن مؤتمر حزب نجم شمال افريقيا سنة 1926 لا يجب تفسيره بالضعف فقط .

و لكن بخيارهم السياسي الاندماجي الذي تمسكوا به دون غيرهم رغم اتفاق جميع التيارات السياسية على الالتفاف حول حزب نجم شمال افريقيا و لا يستقيم تفسير لهذا الحدث دون اعتبار حركة الشبان الجزائريين كانت من صناعة فرنسا الاستعمارية.⁻⁷⁻

لقد كان غياب حركة الشبان الجزائريين في المؤتمر التحضيري لحزب نجم شمال افريقيا بمثابة بداية تفكك هذه الحركة و توزع اعضاؤها على مختلف التوجهات السياسية و منهم من بقي بعيدا عن المبادرات السياسية الرامية الى استقلال الجزائر عن فرنسا.

هوامش الدراسة:

- 1- سيرة حياة مصالي الحاج ، ذكرها محمد حربي ص9
 - 2- J.L.carlie : قضية تسييس الهجرة الجزائرية ما بين الحربين العالميتين نجم الشمال الافريقي أطروحة دبلوم الدراسات العليا الجزائر ما بين 1976
 - 3- حربي محمد اشكالية الديمقراطية في الحركة الوطنية في محاضرة في الملتقى التكريمي حول مصطفى الأشرف -بالمكتبة الوطنية الجزائرية 19-12-2004
 - 4- بلحاج صالح تطورات حرب التحرير الوطني في عهد الجمهورية الخامسة 1958-1962 رسالة دكتوراه - جامعة الجزائر كلية العلوم السياسية و الاعلام جوان 2004
 - 5- بن رمضان فيروز ، الغربية و الحنين في شعر سليمان عازم ، دراسة تحليلية موضوعاتية ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر 2004-2005
 - 6- Victore Louis Marie « programmes et revendication au sein du mouvement national Algerien dans l'autre deux guerre these du droit université de Grenoble .p311
- حميد عبد القادر : الدكتور لمين دباغين ، المثقف و الثورة

